وزارة الثقافة

لذكراكِ

تأليف خليل السكاكيني

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

لذكراكِ

تأليف: خليل السَّكاكيني

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٠
في القدس

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: خليل السَّكاكيني
اسم الكتاب: لذكراكِ
الطبعة الأولى: ١٩٤٠ في القدس

الإشراف العام: عبد السلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف: جزء من لوحة للفنان نقولا صايغ

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

لذكراكِ

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

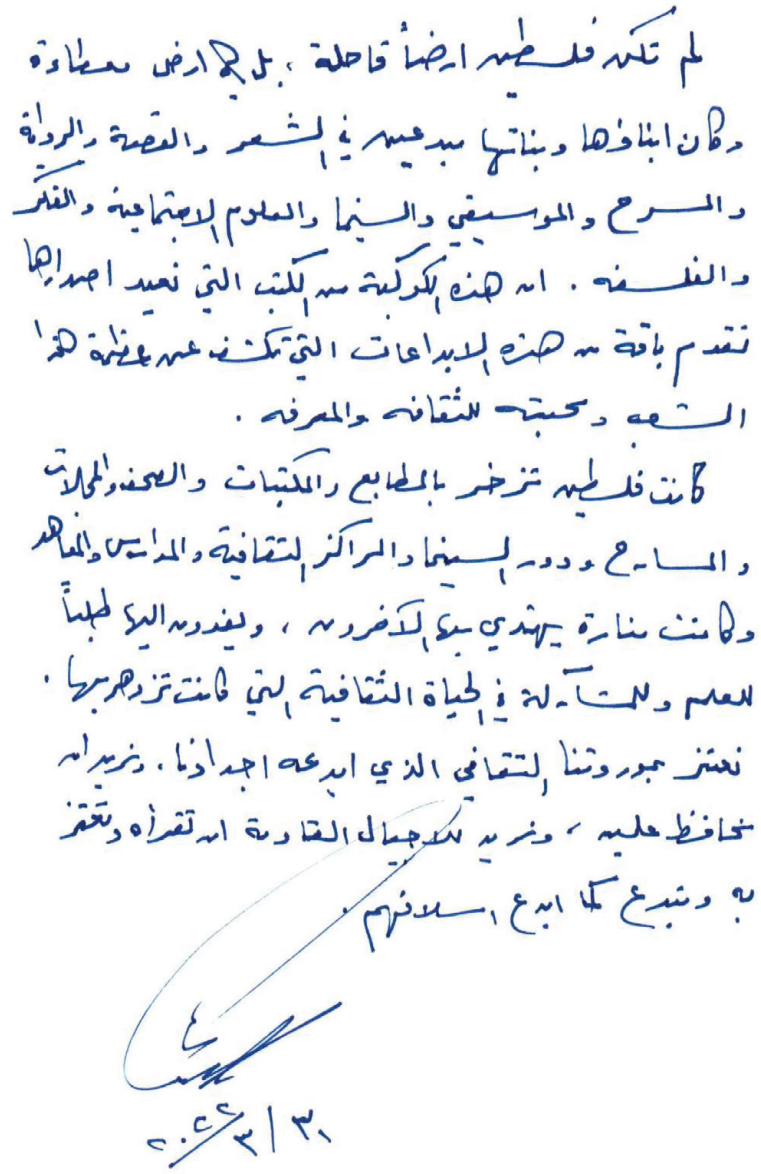

لذكراكِ

(١) الليلـة الأخيرة (الثلاثاء ١٩٣٩/١٠/٣)

قضينـا ليلتنـا البارحـة قِيامًـا خاشـعين خافتـين، وأيدينـا عـلى قلوبنـا، وأَبصارُنـا شـاخصة، فقـد اشـتدت وطـأة المـرض عـلى سـيدتي أمِّ سريٍّ، وسـاءت حالهـا جدًّا.

دخلـت في غَيْبـةٍ مـن أول الليـل ... علـت الزُّرقـة شـفتيها ... بـردت أطرافهـا ... جعـل جسـمها يرشـح بعـرق بـارد لَـزِج ...

سـمعتها تقـول تـارة: إلى متـى ...؟ وتـارة: يكفـي ... وتـارة: يـا خليـل! ... وفي صبـاح اليـوم — الثلاثـاء — جـاء الطبيـب، ففحصهـا فحصًـا يسـيرًا، وعـلى وجهـه علائـم اليـأس، فقالـت لـه: «لمـاذا تركتنـي؟» وهـي آخـر كلمـة قالهـا المسـيح وهـو عـلى الصليـب يخاطـب أبـاه في السـماء!

وبعـد أن خـرج الطبيـب مـن غرفتهـا سـألت: مـاذا قـال؟ كأنهـا أحسـت، أو قـرأت عـلى وجهـه ووجوهنـا أنهـا في خطـر. فسـألت مـاذا قـال؟ لعلهـا تطمـئن أنهـا عائـدة إلى الحيـاة. ثـم رجعـت إلى الغيبـة. وفي السـاعة العـاشرة والربـع فارقـت الحيـاة.

شـاع الخبر، فأسرع الأهل والأصدقاء يشـاركوننا في الحزن.

***

كنـت أخـاف أن تثقـل وطـأة هـذه المصيبـة عـلى أولادنـا: سريٍّ ودميـة وهالـة، ولكنهـم تلقَّوهـا بشـجاعة ورزانـة، وكانـت دميـة وهالـة تقـولان لي: انظـر يـا أبي كأنهـا نائمـة! انظـر مـا أجمـل ضجعتهـا! انظـر كيـف تبتسـم!

وفي صبـاح الغـد - الأربعـاء - وضعناهـا في تابوتهـا، وغمرناهـا بالزهـور، فلـم يظهـر غـير وجههـا الجميـل الـذي زاده المـوت جـمالًا.

ولمـا حانَـت السـاعة التاسـعة، وكانـت موعـد الجنـازة، جـاء الأهـل والأصدقاء ليحملوهـا إلى عربـة المـوتى، فأبيـت عليهـم إلَّا أن نحملهـا: أنـا وولـدي سريٌّ وأخواهـا يوسـف ونجيـب؛ فهـذا واجـب نحـن أحـق النـاس بالقيـام بـه.

مشـينا إلى كنيسـة القطمـون، لأن سريًّـا وأختيـه قالـوا إن أمهـم قالـت إذا ماتـت فلتكـن الجنـازة في كنيسـة القطمـون، فلـم يسـعني إلا أن أحـترم إرادتهـا المقدسـة، ثـم خرجنـا مـن الكنيسـة، وسرنـا إلى مقـبرة صهيـون حيـث أنزلناهـا في مقرهـا الأخـير، في قـبر أبي.

لقـد كنـتِ يـا سـيدتي أم سريٍّ ربـة الـدار في دنيـاك، فأصبحـت ربـة الـدار في أخـراك. فأنـت ربـة الداريـن!

قِفا نبكِ

قِفا نبكِ من ذكرى أذابت حُشاشـتي

ولا تبخـلا بالدمعِ، فالدمعُ حاجتي

قِفا أَسـعفاني في مُصابي، فإنني

أراهُ مصابًـا قد تجاوز طاقتي

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أَحسـبُ أنني

صبورٌ على الأَرزاء يقرعنَ سـاحتي

وأَني كبيرُ القلبِ، لا تسـتخِفُّهُ

حـوادثُ هذا الدهرِ إِمَّا توالت

وأني عـلى حظٍّ من العلم صالحٍ

عـلى قدْرِ ما قد زوَّدَتْني ثقافتي

فلـما دهاني ما دهاني، وجدتُني

ضعيفًا جزوعًا ذا شـجىً وكآبةِ

رجعـت إلى قلبي، وأينَ اصطبارُهُ؟!

وراجعـت ما أدري، وأينَ درايتي؟!

وقلت: لعلَّ الشـعرَ يَنْفَعُ في الأسى

لعـلِّي أرى فيهِ قضاء لُبانتي

تلفَّـتُّ علِّي أن أراها فُجاءةً

وأَصغيـتُ علِّي أن أفوزَ بنامةِ

وقلت: هنا عاشـت، وهذا مكانُها

وكـدت أُناديها على مثلِ عادتي

فلـم ألقَ إلا خُدعةً بعد خُدعةٍ

ولم ألقَ إلا ما يشـقُّ مرارتي

***

تذكَّرت أيَّامَ السـعادةِ علَّها

تُخفِّف من حزني وتشـفي حَزازتي

وقلـت لقد كُنَّا وكُنَّا، فزادني

أسًى والتياعًا ذكرُ تلك السـعادةِ

***

فحاولـتُ أن أنسى، فلم تُجْدِ حيلتي

ولم يكنِ النسـيانُ طوعَ إرادتي

تجلَّـدتُ، لكن لم يُفِدني تجلُّدي

شـكَوْتُ، ولكن لم تُفِدني شِكايتي

***

تعلَّلـتُ بالآمالِ أرقبُ وقتَها

فلـم تكنِ الآمالُ غيرَ عُلالةِ

وأصبـح عمري بعد ذلك فضلةً

أروحُ وأغـدو فيهِ من غيرِ غايةِ

وعادت لياليَّ المِلاحُ مناحةً

تُقـامُ بها الأَتراحُ إِثْرَ مناحةِ

وبُـدِّل عيشي بعد صفويَ غُصَّةً

أُردِّدها في الصدرِ دونَ إسـاغةِ

ولم يبقَ لي من سـلوةٍ غيرُ قبرِها

إليـه أُوالي ما حييتُ زيارتي

يقـولان: إنَّا قد عهِدناك قبلَ ذا

شـجاعًا، ولكن أينَ أينَ شجاعتي؟!

ألا! لا عـزاءٌ يا خليلَيَّ بعدها

ألا! لا عـزاءٌ فاتركاني وحالتي!

زوجة خليل السّكاكيني في صباها

(٢) لستُ أحسد أحدًا ولكن أندب سوء حظي

لنفرض أنَّ ذلك الورم اليسير جدًّا الذي خرج بصدركِ تحت الجلد كان من النوع الخَطِر، فقد بادرنا من فورنا إلى استئصاله وهو لا يزال في مكانه قبل أن تتسرَّب خلاياه إلى الغُدَدِ أو مكان آخر من جسمكِ. ثم عالجنا مكانه بالراديوم والأشعة الكهربائية كما فعلت كثيرات، فسلمن، وعشن العمر الطويل كأنهنَّ لم يُصَبْنَ بشيءٍ.

فلماذا لم يكن حظُّكِ مثل حظهن؟!

ثم لنفرض أننا تأخرنا قليلًا أو كثيرًا، ولكن يقول الطب إن نحو التسعين في المائة من اللواتي يصبن بمثل هذا الورم، فيتأخرن قليلًا أو كثيرًا في استئصاله، يعشن بعد استئصاله عشر سنوات على الأقل.

فلماذا لم يكن لك حظ في هذه التسعين في المائة، وهي ليست قليلة؟!

يقول الطب إن هذه الأورام قد تقف عن النمو من تلقاء نفسها، ولو في الدرجة الأخيرة.

فلماذا حُرمتِ هذا الحظَّ؟!

يقولون إن الراديوم والأشعة الكهربائية تفعل العجائب، فلماذا بطلت عجائبها معنا دون الناس؟!

أعـرف كثـيرات قـد بلغـن أقـصى العمـر، ومنهـنَّ مـن رأيـن أولادهـن وأحفادهـن إلى الجيـل الرابـع.

فلـماذا لم يكن حظك مثل حظهن؟!

أعـرف كثيريـن وكثـيرات يتأففـون مـن الحيـاة، ويئنـون مـن أعبائهـا وآلامهـا، ولا يملكـون مـن أسـبابها شـيئًا، فلـو سـألناهم لفضلـوا أن يموتـوا فيسـتريحوا، ولم يكـن يؤلمنـا ويكـدر صفونـا مثـل أن نـرى بـؤس هـؤلاء النـاس. وكـم وددنـا لـو نسـتطيع أن ندفـع عنهـم البـؤس، وأمـا نحـن فقـد كانـت حياتنـا مسـتوفية الـشروط: لم يـرث كثـيرون أجسـامًا سـليمة لا عيـب فيهـا كـما ورثنـا، ولم يُعـنَ أحـد بالنظافـة والرياضـة والغـذاء عنايتنـا بهـا، ولم تطبـق حيـاة عـلى الأصـول الصحيـة كـما طبقنـا حياتنـا عليهـا، ولم يسُـدْ في بيـت مـن الـسرور والفكاهـة والانبسـاط مـا سـاد في بيتنـا، ولم يطـوَّف أحـد في طـول البـلاد وعرضهـا كـما طوَّفنـا. فـأي مـاء لم نَـرِدْهُ، وأي جبـل لم نتسـلقه، وأي مدينـة أو قريـة لم نزرهـا، توالـت زياراتنـا.

لربـوع لبنـان، عشـنا في مـصر، كأن حياتنـا كلهـا كانـت شـهر عسـل، لقـد كنـا عـلى قلـة وسـائلنا مـن أسـعد خلـق اللـه، وكـم قلـت لـكِ: تعـالَيْ نجـرِّبْ معيشـة المقـت، حتـى إذا مـات الواحـد منـا كان الخطـب عـلى الآخـر هيِّنـا، فلـماذا قُـدر لـكِ أن تكـون حياتـك قصـيرة؟

لسـت أَحسد أحدًا، ولكنني أندب سوء حظي.

زوجة خليل السّكاكيني في الزيّ الفِلَسطيني

(٣) لن أنسى

لـن أنـسى يـوم فحصـك الطبيـب لِأول مـرة، فأحـسَّ بذلـك الـورم اليسـير الـذي خـرج بصـدرك تحـت الجلـد، فاهتـمَّ بـه، وأشـار عليـك بلـزوم المبـادرة إلى اسـتئصاله قبـل فـوات الوقـت، فوجَمـتِ، وإنْ تكلَّفْـت الشـجاعة تكلُّفًـا؛ لأنـك تعرفـين كثـيرات في مثـل حالتـك لم ينفعهـن عـلاج. والتفـتِّ إليَّ كأنـك أردت أن تعـرفي رأيـي، فشـجعتك، وقلبـي يـكاد يـذوب حنانًـا عليـك، وقلـت لـك: إنَّ كثـيرات اسـتأُصلن هـذه الأورام، فعشـن ولا يزلـن عائشـات، وأمَّـا أولئـك اللـواتي لم تنفعهـن العمليـات فلأنهـنَّ تأخـرن أو تهـاونَّ؛ فـلا بـأس عليـكِ.

وقبـل أن نذهـب إلى المستشـفى، وكان موعـد ذهـاب دميـة وهالـة إلى المدرسـة قريبًـا، أخذتِهـما إلى جانـب فودعتِهـما وَداع مـن تخـاف أن تمـوت تحـت العمليـة. ولمـا خرجتـا، وقفـتِ عـلى شرفـة المنـزل تُتبعينهـما نظراتـك، وتُلوِّحـين لهـما بيـدك.

لـن أنـسى يـوم أخذنـاك إلى المستشـفى للمـرة الثانيـة، فقعدنـا في غرفـة الانتظـار، فبكيـتِ بـكاءً مـرًّا.

لـن أنـسى، وقـد لزمـتِ الفـراش الشـهور الطـوال، أنَّـكِ كنـت مـن وقـت إلى آخـر تتضاءَلـين، فتنخرطـين في البـكاء.

نعـم، حاولنـا جهدنـا أن ننفـي مخاوفـك، وأن نُدخـل عـلى نفسـك الأمـل، ولكـن ذلـك كلـه لم يمنـع أن تُحـسي بالخطـر، فتبـكي عـلى شـبابك!

زوَّرتُ كتبَ الطِّبِّ، فكنت أقرأ لك من أدوار المرض أيسرها، فأقرأ على وجهك علائم الاطمئنان، وإن كنتُ في دخيلة نفسي في خوف مستمرٍّ.

كان مرضك شيئًا، فأقرأ شيئًا آخر، والأعراض تتشابه، لأقيم لك الدليل على أنك ناجية.

بل كنت أفزع إلى تفاؤل الساذجين والساذجات، فأقول لك: إن وقَعاتِنا كبيرة، ولكننا ننجو منها، أتذكرين مرضة سري الأولى بالحمى التيفويدية، ومرضته الثانية بالحمى القرمزية، وكانت الحُمَّيان من أخبث أنواعهما، فمن كان يصدق أنه يعيش؟

انظري هذه الليمونة التي غرسناها أمام الدار، فلم تلبث أن ذَوَتْ، وقال لنا العارفون: إنها ماتت، وهممنا أن نقتلعها، ثم عادت إليها الحياة.

انظري إلى هذه الزيتونة التي غرسناها خلف الدار، فمرت السنة الأولى والثانية وهي عود من الحطب، وقال لنا العارفون: إنها ماتت، وقد هممنا أن نقتلعها، ثم عادت إليها الحياة.

يظهر لنا يا أمَّ سري أننا من أهل الحياة، وليس مرضك إلا عرضًا زائلًا، إن شاء الله.

ولكن ذلك كله لم يمنع أن تَنتبهي للخطر فتبكي على شبابك!

لن أنسى قولك حين كان يستولي عليك الضجر: أُحب أَن أَتنفس تنفُّسًا عميقًا، أُحب أَن أَجلس في فراشي، أُحب أَن أَقوم على رجليِّ، أُحب أن

أرى الحديقـة، أُحـب أن أشرب شربـة مـاء مـن البـئر عـلى نفَـس واحـد.

تضيـق نفسـك وأَنـت مضطجعـة فتقولـين: أَجلسـوني، تضجريـن مـن غرفتـك فتقولـين: أخرجـوني إلى الإيـوان، إلى شرفـة المنـزل، افتحـوا الأبـواب، روِّحـوا لي، اسـقوني جرعـة مـاء.

لـن أَنـسى مـا حييـتُ يـوم أخـذت بيـدك لُأسـاعدك عـلى المـشي، وقـد ازرقَّ وجهـك، واتسـعت حدقتـاك مـن الإعيـاء وعـسر التنفـس، فقلـتِ: «أنـتَ تُمـوِّه عـليَّ، انظـر إلى حالتـي.» فأحسسـت أن روحـي تـكاد تخـرج مـن صـدري. وقلـتُ لـك: بخـير أنـتِ، إن شـاء اللـه.

لـن أنـسى مـا حييـت قولَـك لي: يـا خليـل، اعمـل معروفًـا أَعطنـي كـذا، يـا خليـل اعمـل معروفًـا ارفعنـي عـن مخـدتي، فأُعاتبـك وأقـول: أَلي تقولـين اعمـل معروفًـا؟! أنـا خادمـك يـا أُمَّ سريٍّ.

لـن أنـسى ذلـك اليـوم الـذي أخذنـاك فيـه، فدرجـت بنـا السـيارة مـن مـكان إلى آخـر؛ لأنـك كنـت مشـتاقة أن تـتركي فراشـك الـذي طالـت ملازمتـك لـه، وأن تـرَيِ الدنيـا التـي كنـتِ وكنَّـا نحبُّهـا، كأننـا أخذنـاك لتودعـي الدنيـا، لتلقـي عليهـا النظـرة الأخـيرة!

لـن أنـسى يـوم أقامـت مدرسـة دميـة وهالـة حفلتهـا الأخـيرة، تلـك الحفلـة التـي كنـت تحبـين أن تشـهديها لأنهـا حفلـة الشـهادة، فـكان وجهـك في ذلـك اليـوم أشـبه بوجـوه الملائكـة، حتـى إن إحـدى السـيدات الأجنبيـات راحـت تقـول: إنـك كنـتِ أجمـل مـن في الحفلـة، وقـد كان ذلـك اليـوم آخـر

يـوم خرجـت فيـه مـن البيـت.

لـو كانـت تلـك الحفلـة معـرِض جـمال، لَأَخـذتِ الجائـزة الأُولى، ولَأَقامـوا لـكِ عرشًـا، وأعلنـوا أنـك سـلطانة الجـمال، وقالـوا بلسـان الشـاعر:

أنـيري مكان البدرِ إن أَفلَ البدرُ

أو بلسـان صديقنا الشـاعر الكبير معروف الرصافي:

أَأُمَّ سريٍّ، أنتِ سـلطانةُ البها

أطاعـكِ منه ما عصى الناسَ أجمعا

ولم يَـرَ نقصًا في مُحيَّاكِ ناظري

سـوى أنَّ كلَّ الحسنِ فيه تجمَّعا

لقـد كنـتِ، يـا أمَّ سريٍّ، سـلطانة الجـمال في كل عمـرك، لم يزدحـم الفتيـان عـلى طلـب يـد فتـاةٍ كـما ازدحمـوا عـلى طلـب يـدك، وكاد ازدحامهـم يـؤدِّي إلى القتـال.

لـو عشـتِ، يـا أمَّ سريٍّ، لذكرنـا كل ذلـك بالخـير، أَمَّـا وقـد فارقتِنـا فـكل الذكرَيـات، حتـى ذكريـات أيـام السـعادة تمـزق القلـوب، وتسـتوكف الدمـوع!

(٤) إنِّي لَمِنَ المعترضين

مات أبي، وقد أثقلته السِّنون، فحزنت عليه، وبكيته دهرًا طويلًا، ثم قلت وقال الناس: لا اعتراض على حكم القدر.

ثم ماتت أُمِّي، وقد أثقلتها السنون، فحزنتُ عليها، وبكيتُها دهرًا طويلًا، ثم قلت وقال الناس: لا اعتراض على حكم القدر.

أمَّا الآن، وقد عَدَت الأقدار على سيدتي، أُمِّ سريٍّ، وهي في أجمل أدوار الحياة، وهي كالوردة في أكمامها، وهي كلؤلؤة الغوَّاص ميزت من جوهر مكنون، وهي أصح الناس جسمًا، وأنعمهم بالًا، وهي راضية مطمئنة، وهي محبوبة محترمة عند جميع الناس.

أمَّا الآن فإني من المعترضين، ولو كان هناك مجلس أعلى لقاضيت الأقدار إليه.

ليس شيء أعجب من أمر هؤلاء الناس: يُضرَّسون بأنياب ويوطَأون بِمَنْسِم، يتألمون ويحزنون ويبكون، ومع ذلك يرضَوْن ويستسلمون، وكأن ما قد كان لم يكُ كان.

لا يكفي أنهم يتلقَّوْن المصائب إثر المصائب، والضربات إثر الضربات،

حتـى يُكَلَّفـوا الـرضى والاستسـلام، فَمَثَلُهـم مـع الأقـدار مثـل المحكـوم عليهـم بالمـوت في مجالـس القضـاء في الزمـان القديـم؛ فقـد كانـت هـذه المجالـس إذا حكمـت عـلى أحـد بالمـوت تقـول لـه: حكمنـا عليـك بالمـوت فـادعُ للسـلطان بالنـصر!

أيتهـا الأقـدار احكمـي بمـا شـئتِ، وأمَّـا أن تُكلِّفينـا الدعـاء لـك والـرضى بحكمـك. فهـذا لـن يكـون!

(٥) أسعفاني بالبكاء

أسعفاني بالبكاءْ

ودَعا كلَّ عزاءْ

لا تقولا: الصبر يُجدي

حين يشتدُّ البَلاء

ليس يُجدي الصبر،

إن لم يـكُ في الصبرِ رجاء

لا تقـولا: «إنما الدنـ ـ

يـا — ما قيل — فناء»

إن يجِـلَّ الخطْبُ لا تُجـ

ـدِ عِظاتُ الحكماء

•••

آهِ! واشوقي إلى

سلطانتي، زينِ النساء!

آه! واشوقي إلى

طَلْعَتِها ذاتِ البهاءْ

آه! واشَوقي إلى

أيَّامنا الغُرِّ الوِضاء!

يومَ كنَّا نغنَمُ الأُنـ

ـسَ صباحًا ومساء

يوم كنَّا نتعاطى

أَكؤُسَ الصفوِ مِلاء

يـوم كنا لا نرى من

دهرنا إلا الوَلاء

يوم كنا سعداء

يوم كنا سعداء!

•••

حين كان البيت نا

دي الأصفياء الأوفياء،

كنتِ للنادي ضياءً

تَبهجين كلَّ راء

•••

سحب الدهرُ على أيَّا

مِنا ذيلَ العَفاء!

قُوِّض النادي الجميلُ

وخبا ذاك الضياء!

•••

كنتِ، يا أُمَّ سريٍّ،

نجمتي ذاتَ السَّناء

كنتِ إن أَظلمت الدنـ

ـيا، وعزَّ الاهتداء

تُرسلين النورَ يَهديـ

ـني إلى سُبْلِ العَلاء

كنتِ لي كلَّ سروري،

كنتِ لي كلَّ الغَنَاء

كيف تجفين وما عوَّ

دتِني هذا الجفاء؟!

كم أُناديك، ولكن

لا تجيبين النداء؟!

•••

آه! لو أنَّ المنايا

قبلت عنك الفداء،

كنتُ أفديك بروحي

أنتِ أولى بالبقاء

(٦) هنا وهناك

سيدتي أُمَّ سريٍّ!

نحن نبكي هنا حزنًا عليك وشوقًا إليك، ولست أشك أنك واقفة على شرفة الآخرة تبكين حزنًا علينا، وشوقًا إلينا.

يُخيَّل إليَّ أنك تقولين لأُمك وأبيك وسائر الأهل الذين رحَّبوا بك، وأحلُّوك بينهم في المكان العالي: أُحبُّ أن أَرجِعَ إلى زوجي وأولادي وأهلي، رُدُّوني إليهم.

يُخيَّل إليَّ أنك لست راضية هناك، كما أننا لسنا راضين هنا، إنك مقهورة هناك، كما أننا مقهورون هنا.

يُخيَّل إليَّ أنك تقولين لهم: إن داركم هذه لا تملأ عيني، إن بيتي المتواضع على الأرض أجمل منها، إن حياتنا هناك أجمل من حياتكم هنا، ردوني إلى الأرض.

يخيَّل إليَّ أنك لا تنقطعين عن البكاء وهم مقبلون عليك يدارونك، ويحاولون تخفيف حزنك، وإغراءكِ بنعيمهم، فتُعرِضين عنهم، ولا تقبلين عزاء.

أمَّا نحن فكم نوَدُّ لو نستطيع أن نحمل على الآخرة حملة شعواء، ونقتحم الأبواب ولو حمتها سيوف من نار لنردَّك إلينا، أو نموت على عتبة الآخرة فنُعذر.

(٧) أتجلد

يهتاجني الشـوق، فأتجلَّد، ولا أنبِس بكلمة.

يثور بي الحـزن فأتجلَّد، ولا أنبس بكلمة.

أَراجـع أيامنـا الماضية من أولها إلى آخرهـا، فأتجلَّد، ولا أنبس بكلمة.

أذكـر أيام مرضك في ليلك ونهـارك، فأتجلَّد، ولا أنبس بكلمة.

يجـفُّ ريقي، وتتردَّد الغصَّة في صـدري، فأتجلَّد، ولا أنبس بكلمة.

آرق في ليـلي، وتمـر السـاعة تِلْـوَ السـاعة وأنـا أَتململ عـلى فـراشي، فأتجلَّـد، ولا أنبـس بكلمـة.

أزور قـبرك كل يـوم فأَقـف عنـد قدميـك مطـرقَ الـرأس، فأتجلَّـد ولا أنبـس بكلمـة.

إذا كان التجلدُ السـكوتَ فإني أعظم مَن تَجلَّد.

بـلى، أَعقـد كل يـوم مناحـة: ألطـم وجهـي ولكـن دون أن أرفـع يـديَّ، أَضرب رأسي بالجـدران ولكـن دون أَن أَتحـرك مـن مـكاني، أُغنِّـي أغـاني الفـراق فأقـول: «سـافر المحبـوب» ولكـن دون أن يرتفـع لي صـوت.

أعقـد كل يوم هذه المناحة الصامتة ولكنها لا تشـفي غليلي.

أُحـب أَن أَبـكي جهرة في بيتـي، في طريقي، في عملي، في رواحي ومجيئي.

أحبُّ أن يكون إلى جانبي خليلٌ أو خليلان من أخلَّاء الشعراء، فأَقول:

أسعفاني بالبكاء

ودعا كلَّ عزاء

أُحبُّ أن أقف على قبرك، وأَستوقف، وأبكي، وأستبكي، فأقول:

قفا نبك من ذِكرى أذابت حشاشتي

ولا تبخلا بالدمعِ، فالدمعُ حاجتي

إن هذا الحزن الباطن يتطلب الخروج فإذا لم يخرج بكاءً خرج غضبًا أو جنونًا.

إن هذا التجلُّد لا يزيل الحزن ولكن يكبِتُه إلى أن يجد منفذًا فيخرج، مما يدل أن الطبيعة لا تطيق الكبت، وأن التجلُّد غير طبيعي. وليس شيء في ملتي واعتقادي أضرَّ من مخالفة سُنَن الطبيعة، وقد سنَّت الطبيعة للحزن البكاء، فمن علمنا هذا التجلُّد؟!

لقد أَفسدنا طبائعنا ونحن لا ندري، ولعل القدماء كانوا أعرف بطبائعهم وأطوع لها منا، فقد كانوا يعقدون المناحات للتنفيس عن صدورهم، وكانوا إذا لم يكفِ البكاء يعقدون حلقات رقص حول القبور يهتزُّون فيها ألمًا، بل قد يلطمون وجوههم، ويشقون جيوبهم، ويضربون رءوسهم بالجدران، يفعلون كل ذلك ليجد الحزن منفذًا يخرج منه.

(٨) لما عشنا متنا!

ما كادت سيدتي أُمُّ سريٍّ تصل إلى أجمل أدوار الحياة.

وما كاد أولادنا يستوفون ثقافتهم العالية، ويُلِمُّون ببعض الفنون الجميلة إلمامةً كافية.

وما كدنا نَستقرُّ في بيتنا المتواضع.

وما كدنا نعيش كما شاء اقتراحُنا على المُنى نقول مع البحتري:

أيها الدهرُ حبَّذا أنت

دهرًا قِف حميدًا ولا تُوَلِّ حميدا

كل يوم تزدادُ حسنًا، فما تَبْـ

ـعَثُ يومًا إلا حسبناه عيدا

ما كدنا نصل إلى هذا الدور الجميل الذي كنا ننظر إليه من أمدٍ بعيد، حتى جاء الموت، فهدم ما بنينا فأعلينا.

إذا كان هناك من يصدُق عليه القول: «لما عشنا متنا» فنحن.

(٩) القبور والدور

شاءت الأقدار أن تقضي الشتاء الماضي في المستشفى بين أيدي الأطباء والجراحين، ثم يجيء هذا الشتاء وأنتِ تحت الثرى في تلك المقبرة البعيدة الموحشة التي يمرُّ بها الشجاع فيفزع.

لماذا لا يدفن الناس موتاهم في دورهم فيختلط الأحياء والأموات معًا؟!

كيف يُطاق العيش إذا كان الحيُّ في دار والميت في دار؟!

رحِم الله ذلك الدَّوْرَ الذي كان الناس فيه يهتمون بقبورهم أكثر مما يهتمون بدورهم.

لست أدري ما الذي أوحى إلى الناس أن يقولوا: «الحيُّ أفضلُ من الميت» ... لا، لا، ليس الحي أفضلَ من الميت، بل الميت أفضل من الأحياء كلُّهم لو يعلمون.

رحِم الله ذلك الزمانَ الذي كان الميت فيه أفضلَ من الحي، ذلك الزمان الذي كانت فيه القبور أجملَ من الدور، ذلك الزمانَ الذي كانت فيه القبور أهرامًا وهياكلَ رست أصولها تحت الثرى، وسمت فروعها إلى السماء تعانق قِطَعَ السحاب الممطر، على حين كانت الدور أكواخًا، ذلك الزمان الذي كانت فيه القبور تُبنى بالرخام، وتزيَّن بأجمل النقوش والرسوم، وتؤثَّث بأفخر الرياش.

رحِمَ الله الفراعنةَ أصحابَ الأهرام! ورحم الله شاه جهان، صاحب «تاج محل»! فقد كانوا ألصقَ بموتاهم وأعرف بأقدارهم منَّا.

ليتني استطعت أن أعمل قبرَكِ بيتًا جميلًا ذا نوافذ، أفرشه بالسِّجاد، وأضع فيه آلة الراديو تُسمعكِ الأناشيد التي تحبينها!

ليتني استطعت أن أَعمل بوصيَّة صديقنا الطَّيب الكريم الرقيق القلب الدكتور منصور فهمي، فقد كتب إليَّ يقول:

«إذا استطعت أَن تجعل حجارة قبرها ذهبًا فافعل.»

آه! لو كنتُ أستطيع!

(١٠) سنتي الماضية ١٩٣٩

لكِ الويلُ يا سـنتي الماضيَه!

لكِ الويلُ من سـنةٍ جانيَه!

لقد كنتِ، مُذْ كُنتِ بين السـنين

عـلى بَيْتِي الضَّربةَ القاضيه

مَشَيْتِ إليهِ على غِرَّةٍ

وليتَكِ مَا كنتِ بالماشـيه!

مشيتِ إليهِ ففجَّعتِني

بربَّتِهِ الدُّرَّةِ الغاليه

بِمَهـوى فؤادي، بعُنوانِ فخري

بموضعِ أُنسي، بآماليه

كأَنَّـكِ غاظك ما نحن فيه

من الصفوِ والعيشـةِ الراضيه

نبُثُّ السرور هنا وهناكَ

ونحسـو كئُوس الهنا صافيه

فزعزعتِ أركانهُ الراسيه

وضعضعتِ جدرانهُ العاليه

وأَطفأْتِ أنوارَهُ الساطعاتِ

وصَوَّحْتِ أَزهارَهُ الزاهيه

وهذي القلوبُ غدت داميه

وهـذي العيونُ غدَت باكيه

•••

أَلا! إنَّ ذا لم يكن في حسـابي

ولم يـكُ يَخطرُ في باليه

فيـا ليتني كنتُ في الذَّاهبينَ!

ويـا ليتها كانتِ الباقيه!

(١١) كيف كنتُ وكيف صرتُ

كيف قُدِّر لي أنا الذي كنت أُوزِّع السرورَ توزيعًا ذاتَ اليمين وذاتَ اليسار، فلم يكن أَحد يلقاني إلا وأنا هاشٌّ باشٌّ.

أنا الذي كنتُ أُجدِّد شبابي كلَّ يوم: أستحمُّ بالماء البارد، وأُمارس ألعابي الرِّياضيَّة، وأراعي كلَّ الشرائط الصحية، فكنت أزداد كل يوم قوةً ونشاطًا وسرورًا.

أنا الذي كنت لا أَمشي إلا مرحًا، ورأسي يكاد يَمَسُّ السماء سرورًا لا خُيَلاء.

أنا الذي كنت من أسعدِ خلقِ الله أَينما كنت، وعلى كل حال، حتى في أيَّام الحرب الكبرى، حين كان الواحد منا لا يخرج من بيته ومن أمله الرُّجوع، ولا يُمسي ومن أمله أن يُصبِح، في تلك الأيام السوداء التي زرت فيها السجون، محكومًا عليَّ بالموت بجريرة غيري، كنتُ أبثُّ السرور، وأُطَمْئِنُ الخواطر القلِقة، وأُعزِّي النفوس المحزونة، وأشجِّع القلوب المروِّعة.

كيف قُدِّر لي أَن أَتلقَّى هذه الضربةَ القاضية فيتحوَّل سروري إلى نُواحٍ مستمرٍّ؟!

ألا! من شاء أن يتعلم الحزن والنواح فليأْت إِليَّ.

(١٢) الحزن قديم

يظهـر أَن الحـزن قديـم، فـما مـن لغـةٍ إلا فيهـا مـن ألفـاظ الحـزن والبـكاء شيءٌ كثـير. ولعـلَّ اللغـةَ العربيـةَ أغنـى اللغـات في هـذا البـاب. وليـس الحـزن والبـكاء ضعفًـا، بـل أَعتقـد أن الأمـة التـي لهـا قلـوب ولا تتأثـر لَهِـيَ أُمـة ضعيفـة قليلـة الحَيوِيَـة، وليـس هـذا التجلُّـد الـذي نتكلَّفُـهُ تكلفًـا إلا وسـيلة إلى قتـل الحيويـة هـذه، وإذا فقـدت الأمـة حيويتهـا فـأَيُّ فـرقٍ بينهـا وبـين الجـماد؟

أُعيـذك يـا أُم سريٍّ وأُعيذ نفـسي أن أكون أمام مصيبتي فيكِ جمادًا!

زوجة خليل السّكاكيني في المدرسة التي كانت تعمل بها معلِّمة

(١٣) أرغمتَ يا موت أُنوفَ القنا

تُحاوِل الدنيا أن تُرغمَني على التسليم، أَن أقول كما يقول الناس: هذه حالة الدُّنيا، أَن أَتعزَّى بما يتعزَّون بهِ، أَن أُقابل مصيبتي بمصائب غيري، أَن أَقنع بالخيال والرسوم والرموز، بل تُحاولُ الدنيا أَن تُعيدني طفلًا أتعلَّق بكل حديث خُرافة، فأَتمرَّد عليها.

مَثَلي مثلُ أسدٍ يُؤتى به من عرينه، ويوضع في قفص، فيمدُّ إليه رائضهُ هِراوة، فينقضُّ عليها، ويحطِّمها بأنيابه، فيمدُّ إليه أُخرى فأُخرى إلى أن يكلَّ الأسد ويملَّ من تحطيم الهراوات؛ فإذا مدَّ إليه هراوة بعد ذلك انكفأ إلى جانب في قفصه ذليلًا!

هذا حالي مع الدنيا، فإذا سكتُّ فسكوت ذل وانكسار.

لقد كان بيتي عريني، فجاء الموت، فحزنت، وبكيت، ثم انكسرت، فإذا عشت، وليتني لم أعش، عشت ذليلًا منكسرًا، وقلت مع الشاعر:

أرغمتَ يا موتُ أُنوفَ القنا

ودُستَ أَعناقَ السيوفِ الحِدادْ

(١٤) المنايا العشـواء، والموت النقاد

أَعْـرَفُ النـاس بالمـوت هـم الشـعراء، وأصـدقُ أقوالِهـم فيـه قـولُ زهـير بـن أبي سُـلمى:

رأيْتُ المنايا خبطَ عشـواء

وقولُ ابنِ النبيه:

والموتُ نقَّادٌ على كفهِ

جواهـرٌ يختارُ منها الجِيادْ

رأى الأول أَن الناس يموتون جُزافًا فوصف الموت بالناقة العشـواء.

ورأى الثـاني أن المـوت يتخـيَّر النـاس تخـيُّرًا الجـوادَ منهـم فالجـواد، فوصـف المـوتَ بالبصـير النَّقَّـاد.

لـو سـلمتِ يـا أُمَّ سريٍّ مـن المنايـا العشـواء، لم تسـلمي مـن المـوتِ البصـير النقـاد!

(١٥) الغُصَّة التي لا تُساغ

أروحُ وأجيءُ والغصة في صدري.

أذهب إلى المدرسة، وألقي دروسي والغصة في صدري.

آوي إلى فراشي، وأقومُ منه، والغصة في صدري.

أَستقبلُ الزائرين، وأُجالسُهم، وأُبادلُهم الحديث، وأقابلُ الابتسامَ بالابتسامِ، وأُودِّعُهم والغصة في صدري.

أَقْرَأُ وأكتبُ والغصة في صدري.

لا أُحاولُ أن أُسيغ هذه الغصة إلا نشِبت في حلقي.

أُشبِّهُ نفسي بالمُعلَّق من عُنُقه بحبلٍ مُغار الفتلِ في ساريةٍ، أو جذعِ نخلةٍ، يحاولُ من حلاوة الروح، كما يقولون، أن يُفلت من الحبل، على غير جدوى، وكلُّ حركة منه تُشدِّد عليه الخِناق، إلى أن يموت.

(١٦) لغة الموت

إذا أردتَ أن تعـرِفَ رأْيَ أُمَّـةٍ في المـوت فانظـر في لغتهـا، وإذا نظـرت في ألفـاظ اللغـة العربيـة ذات العلاقـة بالمـوت رأيـت عجبًـا.

يقولـون تـوفى اللـه فلانًـا، أَي أَخـذ حقَّـه، عـلى اعتبـار أَن الإنسـان حـقٌّ مـن حقـوق اللـه، فـإذا مـات فقـد تـوفى اللـه حقـه.

يقولـون قـضى فـلانٌ نَحْبَـهُ، والنحـب هـو النَـذْر، واسـتعملوا النـذر للمـوت؛ لأنـه لازم في رقبـة كل حيـوان.

يقولـون قـضى فـلان أَجَلَـهُ، ومـن معـاني الأَجـل حلـول وقـت الدَّيـن، ولذلـك اسـتعملوا لـه لفظـة قـضى، فـإذا قلنـا قـضى فـلان أَجَلَـهُ فكأننـا قلنـا قـضى دَيْنَـهُ.

يقولـون غلِـق رهـن فـلان، يقـال غلِـق الرهـن إذا اسـتحقَّهُ المرتهـن فامتنـع فكاكـه.

وهنـاك عبـارات أُخـرى لا يتَّسـع لهـا هـذا المقـام. وأَنـت تـرى مـن أكـثر هـذه العبـارات أنَّ المـوت حـق، ولسـت أشُـكُّ أَنَّـه مـرَّ عـلى النـاس دهـر طويـل وهـم يُنكـرون المـوت، ولم يقولـوا إنـه حـق إلا مُرغَمـين.

(١٧) علاج الحزن

كيف تعالج الطبيعةُ الحزنَ؟

يُخَيَّل إليَّ أن الطبيعة تَمَسُّ المحزون بشيءٍ من الجنون على قَدَر حزنه، ولا يعود إلى عقلِهِ إلا شيئًا فشيئًا، وقد لا يعود إليه، كما تُعالج الألم الشديد بالإغماء.

ألا ترى المحزون كيف يُقلِّب كفَّيْهِ، أو يدقُّ يدًا بيد، أو يلطم وجهه، أو يضرب رأسه بالجدران، أو يمزِّق ثيابه، أو يتلفَّت يمينًا وشمالًا، أو ينتبذ مكانًا قصيًّا فلا يكلم إنسيًّا، أو يهيم على وجهه؟

ألا ترى كيف يحدِّث نفسه، كيف يناجي الأرواح، كيف يخاطب الديار والأشجار، والليل والنهار، والرسوم والآثار، يسألها فتجيب. من ذلك قول الشاعر:

فيا شجرَ الخابورِ ما لك مورِقًا

كأنك لم تجزعْ على ابن طريفِ!

أنا نفسي لا أذكر كيف كنت يوم وقعت المصيبة، لا أذكر من أسرع إلينا من الأهل والأصدقاء، لا أذكر ماذا قلت، وماذا عملت، والأرجح أني لم أقل شيئًا، ولم أعمل شيئًا، فلو دخل غريب علينا في تلك الساعة الرهيبة لم يصدِّق أنِّي أنا المصاب.

وقد أشار الشمردل بن شريك أحد شعراء الحماسة إلى هذه الحالة في قوله:

بنفسي خليلاي اللذان تبرَّضا

دموعي، حتى أسرع الحزن في عقلي

تبرَّضا دموعي: أفنياها شيئًا فشيئًا؛ أي: بكيت عليهما حتى قلَّ دمعي فكأنهما قلَّلاهُ، فلما قلَّ أسرع الحزن في عقلي.

إذا صح ذلك فلا دواء للحزن في المصائب الجِسام إلا الجنون. ولكن؛ لأَن الناس أفسدوا طبائعهم بالكَبْث والتجلُّد والتكلُّف فعادت لا تسعفهم بهذا الجنون دفعًا للألم أو تخفيفًا له، جعلوا حين تُلمُّ بهم المصائب يفتشون عن الجنون تفتيشًا، من ذلك أنهم يلجأون إلى الشراب، حتى على القبور. وقد جاء في الأدب القديم أنَّ رجلين من بني أسد خرجا إلى أصبهان، فآخيا دهقانًا بها في موضع يقال له «راوند» فمات أحدهما، وغَبَرَ الآخر والدهقان ينادمان قبره، يشربان كأسين، ويصبان على قبره كأسًا، فمات الدهقان، فكان الأَسدي ينادم قبريهما، ويترنم بشعر، منه هذا البيت:

أصبُّ على قَبْرَيْكما من مُدامةٍ

فإلا تنالاها تُرَوِّ جُثاكما

بـل إن بعـض المسـيحيين لا يزالـون إلى يومنـا هـذا، في هـذه الصـلاة التـي يقيمونهـا عـلى القبـور، يضعـون آنيـة الخمـر عنـد رأس الميـت، وبعـد الصـلاة يـشرب الكاهـن، ويسـقي، ثـم ينضـح ثـرى الميـت بمـا بقـي في آنيتـه.

مهـما يكـن الأمـر فليـس شرب الخمـر عـلى القبـور ومنادمتهـا إلا مـن أمـارات الجنـون الـذي تمـسُّ بـه الطبيعـة المحـزون.

(١٨) أين العزاء

مَهما كانت الحياة فقد أَلِفْناها، ورضينا بها، بل إن كثيرين من الناس يقطعون الأيَّام تِلْوَ الأَيام، بل السنين تِلْوَ السنين، وهم لا يُفَكِّرون في الحياة: أجميلةٌ هي أم غير جميلة، أَعالية هي أم غير عالية، أيسيرة هي أم غير يسيرة. لا يفكرون في تجميلها إذا كانت غير جميلة. ولا في إعلائها إذا كانت غير عالية، ولا في تيسيرها إذا كانت غير يسيرة، وما ذلك إلا لأَنهم أَلفوها، وقد يُؤلف الشيءُ الذي ليس بالحسن، كما قال الشاعر.

وإذا كان هناك من لا تُعجبه الحياة فإنَّهُ يتعلق بالأَمل، ويُحاول أن يُقنِع نفسه أَن دوام الحال من المحال، وأَنَّ السعادة تنتظره، وأنَّ المسألة مسألة وقت ... وإذا أَبى دهرُه إسعافَه في نفسه رضي منه أَن يُسعفه في من يُحِبُّ ويُكرم ... وإذا جَهَد دهرُه في عِناده وعِدائه لجأ إلى خياله يستعين به على تغيير طبائع الأشياء، وتلوين الحياة بغير أَلوانها. خلاصة القول أَننا أَلفنا الحياة، ورضينا بها على عِلَّاتها، وأما الموت فلم نأْلفه، ولم نرضَ به، فإذا وقع فكيف العزاء؟

لقد فتَّشت عن العزاء في كل مظنَّة تفتيشًا، فلم أجده.

***

لا يُعَزِّيني، وأستغفرُ الله، أن يكون هناك عالم آخر لا همَّ فيه ولا غمَّ ولا وجع ولا تنهُّد يقوم إليه الناس، فتستقرُّ بهم النوى، ويتمتعون مع

أعزائهم بالخلود الجميل.

ما أجمل القيامة! وإذا آمن الناس بها فلا لأنهم رأوُا الأمواتَ يقومون، ولكن لأنَّهم يتمنَّوْنَ أن يقوموا، فهم يؤمنون بما يتمنَّون لا بما يعتقدون، كأنَّهم تمنَّوْا، فكان الدين، أو كان الدين فكان ما يتمنَّون، وإذا فتَّشتَ وجدت أن الأديان كلها أماني، وإذا خلت الأديان من هذه الأَماني فلا يؤمن بها أحد.

لا يهمُّ الناس ما في هذا الدين أو ذاك من أُصول وعقائد، بل إن أكثرهم لا يفهمون هذه الأصول، ولا يفهمون هذه العقائد، وإنما يهمهم ما في الدين من أماني، وإذا تمنَّوا القيامة فلا ليتمتعوا بما لا عينٌ رأَت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لا ليلبسوا تيجانًا من الذهب، لا ليروا سماءً من عقيق أو ياقوت أو زبرجد، ولكن ليلقوا أعزَّاءهم، هذه أُمنيَّة الأَماني، ولكن متى تكونُ هذه القيامة؟! متى تكون؟ ... هذه هي المسألة التي حيَّرت الأفكار قاطبةً ...

لقد مات المؤمنون منذ كانوا وكان الدين، ولا يزالون يموتون على رجاء هذه القيامة، ولكن طال الانتظار جدًّا، وأَي رجاء يعيش مع هذا الإبطاء.

ثم أَلم يكن أقربَ إلى رحمةِ الله أن يجعل عالمنا هذا مثل ذلك العالم الآخر لا غمَّ فيه ولا همَّ ولا وجع ولا تنهد ولا موت، فنُكفي هذا الشقاء؟!

ومع ذلك فقد كان من المنتظر أن يُهوِّن الدينُ الموتَ على الناس، على الراحلين والمقيمين منهم، ولكن الذي نراه أنَّ أشدَّ النَّاس تديُّنًا وتشوُّقًا إلى ملكوت الله لا يزالون يؤثرون هذه الدنيا التي يصفونها بأنَّها وادي البكاء على تلك الجنة التي وُعد بها المُتَّقون، يؤثر الأَب أن يكون ولده معه على أَن يكون في صفوف الملائكة، ويؤثر الزوج أَن تكون امرأَته معه على أن تكون في جوار رَبِّهِ.

بل إن المسيح الذي قال إن مملكتَهُ ليست من هذا العالم، والذي ازدرى الدنيا، وعاش فيها معيشة الزاهدين، والذي أَعلن أَنَه ابن الله، وأنَّه إذا ارتفع إلى السماء جلس عن يمين أبيه، إن المسيح نفسه في ساعاته الأخيرة دَهِش، واكتأَب، وقال: «يا أَبا الآب كل شيء مستطاع لك فأجِزْ عني هذه الكأْس.»

لا يُعزِّيني قول الفلاسفة إن الموت ليس فناء، ولكنَّهُ استحالةٌ وتغيرٌ، وأَن الجوهر لا يفنى وإنما تبطل الأعراض والنِّسَب والإضافات.

وأن الموت تمام حدِّ الإنسان لأنَّهُ حسب تعريفهم «حيٌّ ناطق مائت» فالموت تمامه، والواجب على العاقل أن يستوحشَ من النقصان، ويأْنسَ بالتمام.

وأن كل كائن فاسد لا محالة، فمن أحبَّ أن لا يفسد فقد أحبَّ أن لا يكون، ومن أحب أن لا يكون فقد أحب فساد ذاته، فكأنهُ يُحب أن يفسد، ويحب أن لا يفسد، ويحب أن يكون، ويحب أن لا يكون، وهذا محال.

لا يُعَزِّيني قولهم إن هذا العدم الذي نخاف أن نصير إليه هو مثل العدم الذي كنا فيه، فإذا كنا لا نخاف من الأَوَّل، فلماذا نخاف من الثاني.

لا يُعَزيني قولهم إن الموت ليس برديء، وإنما الرديء هو الخوف منه.

لا يُعَزيني قولهم إن الحزن غير طبيعي ولا ضروري.

لا يُعَزيني قولهم إن ألم الموت لا يزيد عن ألم الأمراض التي تتقدمه، وتُؤدِّي إليه، وأَنَّ الحيَّ إذا حلَّ به الموت بطل حسُّه وألمه، نعم ولكنَّ أهله يُحِسُّون ويتألمون، فإذا أبطلتم حس الميت فأبطلوا حس الحي لو كنتم تقدرون.

ومع هذا لم نَرَ، ولم نسمع أن هذه الفلسفةَ هوَّنت الموت على أحد، حتى الفلاسفةِ أَنفسهم، وإذا كانت تُهوِّنهُ فهل كلُّ الناس فلاسفة؟

•••

لا يُعَزِّيني أَنْ أَلجأ إلى خيال الشعراء: أَن أَنظر إلى مكانكِ، فأتخيَّل أنِّي أراكِ.

أَن أَروح وأَجيء، فَأَتخيَّلَ أَنَّكِ معي.

أَنْ أتمثَّلك في ندى الصباح، في زهر الحديقة، في نجوم السماء، في كل مَعْنى لطيفٍ رائق، في كل شكل أو لَوْنٍ جميل رائع.

أَنْ أَسـمعك في زقزقـة العصافـير، وبُغـام الظُّبـاء، وسـجع الحـمام، وهينمـة النسـيم.

أَن أَتناول التلفون فَأَتخيَّلَ أَنِّي أُخاطبك، وَأَنِّي أسـمعك وأنكِ تسـمعينني.

مـا أحـرى هـذا الخيـال أن يجـدِّدَ الحـزن، ويزيـده! وإلا فـما بالنـا نـرى أن الشـعراءَ أنفسَـهم أشـدُّ النـاس حزنًـا وبـكاء؟ يسـلو النـاس وهـم لا يسـلون، ويصـبِر النـاس وهـم لا يَصْـبِرون!

***

لا يعزينـي أَن أتذكَّـر أيـام السـعادة، أيـام كان الزمـان غلامَنـا، أيـام كنـا نطـوف بأكنـافِ السـحاب المخيِّـم. أيـام كنـا نـوزِّع الـسرور توزيعًـا.

أَيـام كنـا نتسـاقى أَكـؤسَ الصفـو مِـلاء، أيـام كنـا نبنـي عـلالي وقصـورًا في الهـواء، أيـام كنـا سـعداء! أيـام كنـا سـعداء!

لا أذكر تلك الأيام إلا ثارت أشـجاني وأحزاني.

***

ولكـن النـاس يتعزَّوْن ويُعزُّون، فَبِمَ يتعزَّوْن ويُعزُّون؟

يقولـون لقـد اسـتراحت، ومَـن قـال لكـم إنهـا كانـت تشـتاق إلى هـذه الراحـة؟

يقولون إن الحزن يكون شديدًا في أوَّلِهِ، ثم يخف شيئًا فشيئًا.

أيها الناس!

إن الحزن هو أثر المصيبة لا المصيبة نفسها، فإذا خفَّ أو زال، فهل تخفُّ المصيبة أَو تزول؟ الحزن هو الألم لا المرض، فهل يزول المرض إذا عالجنا الألم بالمُكمِّدات؟ ألا تكون المصيبة في عُرفكم مصيبة إلا إذا كانت بنت ساعتها، فإذا مرَّ عليها زمان قصير أو طويل بطل كونها مصيبة؟ أَإذا عميتُ فلا أَكون أعمى إلا في اليوم الأَول، ثم أعود بصيرًا؟!

يقولون كل شيء يكون في أول أمره صغيرًا، ثم يكبر، إلا المصائب فإنها تكون في أوَّل أمرها كبيرة، ثم تصغر.

وهذا الكلام لا أفهمه أيضًا. لِنَأخذ مصيبتنا، لقد كانت كبيرة تُجاوز طاقتنا لأَننا فقدنا أُمَّ سريٍّ، فهل يظهر لنا بعد حين أَننا كنا واهمين، أَنَّ أُمَّ سريٍّ لم تكن ربة الدار، وموضع الأُنس، وذات العقل الراجح، والقلب الكبير، والخُلُق العذب، والجمال النادر، وأَنها لم تكن الزوجة الفاضلة، والأُم الرؤُوم، والصديقة البارَّة؟!

هل يظهر لنا أَنها لم تكن على شيء من هذا، فتصغر المصيبة فيها شيئًا فشيئًا إلى أَن تزول؟!

لا لا، بل الواقع أن الأمر على خلاف ذلك. تقع المصيبة، فيصاحبها شيء من الذهول أو الجنون، فيُظَنُّ أَنَّها صغيرة. ولكن إذا ذهب الذهول، أو الجنون ظهرت بمظهرها الصحيح، فكأنها تتجدَّد كل يوم؛ كما تصيب

المرء ضربة شديدة، فلا يُحسُّ بها في أوَّل أمره، ولكنهُ لا يلبث أن يُحس بالأَلم، ولا يلبث الألم أن يزداد.

يقولون من رأى مصيبة غيرِهِ هانت عليه مصيبته، كأنه لا يكفي أن يُصاب الإنسان حتى يُكلَّف أن يستصغر مصيبته.

أَيها الناس!

لا دخلَ لمصيبة الواحد في مصيبة الآخر؛ فكل واحد مصيبتُهُ على قدِّهِ.

يقولون مهما عظمت المصيبة فما أحرانا أن نكون شاكرين لأنها لم تكن أعظم. كأَنَّهُ لا يكفي أن نُصاب، ولكن يجب أن نقبِّل اليدَ التي ضربتنا لأن ضربتها لم تكن أشدَّ!

إذا ضربني أحد على عيني ففقأها يجب أن أقبِّل يَدَهُ لأنَّه لم يفقأ عينيَّ الاثنتين.

إذا ضربني أحد فكسر يدي يجب أن أُقبِّل يَدَهُ لأنه لم يكسر يديَّ الاثنتين.

إن هذا هو الذل الذي ليس بعده ذُل، إنه لأهون عليَّ أن تنصبَّ عليّ المصائب انصبابًا من أن أقف موقف الذل هذا.

أَلا! أنا لا أختار تقبيل اليد التي تضربني ولو كانت يد زفس!

(١٩) الصبر الصبر

يقولون: الصبر الصبر.

مـرَّت بي شـدائدُ كثـيرة كانـت مسـتحكمِة الحلَقـات، فصـبرتُ عليهـا إلى أن فُرِجـت، وكنـت أظنُّهـا لا تُفْـرَج.

حـين كنـت في أمـيركا صـبرت عـلى مـا لا يُطـاق، وقـد كنـت حريًّـا أَن أَرجـع مـن اليـوم الأَول، وأَكفـي نفـسي مؤونـة الفـراق، ومـع شـدة مـا كنـت أُعـاني مـن الأَشـجان والأشـواق ردَدْتُ النفـس عـلى مكروههـا، وصـبرت إلى أَن جـاء الفـرج.

وحـين أُخـذتُ مـن بيتـي في أَثنـاء الحـرب الكـبرى إلى السـجن بجريـرة غـيري، ولم أشـكَّ أننـي محكـومٌ بالمـوت، ثـم أُخـذت إلى درعـا مُكبَّـلًا ماشـيًّا، ثـم في القطـار إلى دمشـق حيـث أُودعـتُ السـجن لمـدة غـير قليلـة أَنتظـر تنفيـذ الحكـم، ثـم خرجـتُ مـن السـجن، فقضيـت نحـو السـنة في دمشـق لا أعـرف عـن ذويَّ، ولا يعرفـون عنـي شـيئًا، في تلـك الأَيـام العصيبـة الرهيبـة صـبرت إلى أن جـاءَ الفـرج.

وأمـا الآن فـما معنى الصبر، وأيَّ فرج أرجو منه؟!

نعـم، لا يكـون الصـبر صـبرًا إلا إذا كان هنـاك شـوق أو أَلم، ولكـن مـن الجهـة الأخـرى لا يكـون الصـبر صـبرًا إلا إذا كان هنـاك رجـاء، وإلاّ فـلا معنـى للصـبر، ولا فائـدة منـه.

ويقول جرير:

وَلَقَد أَراكِ كُسيتِ أَجملَ مَنْظَرٍ

ومَعَ الجمالِ سكينةٌ ووقارُ

لعلكم تعنون بالصبر أن أشتاق، فأَمتنع عن الاشتياق، وأن أتألَّم، فأمتنع عن الألم، وبعبارة أُخرى، أن لا أشتاق، ولا أتألم. إذا كان هذا الصبر الذي تعنون فليس إليه من سبيل.

أتريدون مني أن أنسى أُمَّ سريٍّ؟!

والله لو كان عندي طير فمات لبكيته، فكيف لا أبكي سيدتي؟

والله إني لأخجل من نفسي أَن أَكتفي في مصيبتي هذه بالبكاء، كان يجب أَن أَلطم وجهي، وأَضرب رأسي بجدران غرفتي، وأعقد المناحة إثر المناحة، بل كان يجب أن أَنسحب من الدنيا، وأهيم على وجهي إلى أَن أَلقى حتفي.

ألا! لست في حاجة أن يوصيَني أحدٌ بالصبر، وإنما أَنا في حاجة إلى من يشاركني في البكاء، فإذا لم تشاركوني في البكاء، وأُمُّ سريٍّ أَحقُّ من مات بالبكاء، وإذا قبح بكاء ميت رأيت بكاءها الحسنَ الجميل، كما قالت الخنساء في بكاء أخيها صخر، إذا لم تشاركوني في البكاء، فدعوني وشأني.

أُجلُّ سلطانة، وأُجلُّ نفسي أن أستكثر عليها هذا الألم، وهذا البكاء، وفي أول فرصة أكفُّ عن الشعور بالألم، وأكفُّ عن البكاء، أعدُّ نفسي خائنًا

دنيئًا، فأقول مع الشاعر:

وحقِّ هواكِ خنتُكِ في هواكِ.

أَيُّ صبر أعظم من الصبر على الألم والبكاء؟!

إذا أردتم أن تتعلموا الصبر فمنِّي.

وأمَّا الصبر الذي تتكلمون عنه فما أقلَّ حظي منه!

إني لأستغرب، وقد خسرت سيدتي أُمَّ سريٍّ، وهي الجوهرة النفيسة المضنون بها، أن توصوني بالصبر القبيح.

جهلتم وقد يستصغر الأمر جاهلُه!

(٢٠) كأنك خُلِقْتِ من المسك والذهب المصفَّى

لم أَخْتَرْكَ يا أَمَّ سَريٍّ لأنَّك أوَّل من لقيتُ في طريقي، فقد عشتُ منذُ خرجتُ من المدرسة في جوٍّ بهيج كانت أجملُ فتياتِ ذلك العصرِ وأرقاهنَّ كواكبَ لامعةً فيه.

لم أَخْتَرْكِ وأنا غرير لا أفهمُ الجمال، ولا أدري ما هو، فقد أَنفقت أوقاتي على البحث عنه: قرأت الكتب، زرت المتاحف والمعارض وهياكل إلاهات الجمال حيثُ رأيتُ الجمال ممثلًا: مصوَّرًا، أو مسبوكًا، أو منحوتًا، ولو كانت هناك جامعة، وكان فيها كرسي لإلقاء دروس في الجمال لكنتُ أجدرَ من يتبوأُ ذلك الكرسي.

لم أَخْتَرْكِ وأنا صغيرُ النفس أرضى من الدنيا بالنصيب الأخسِّ، فقد خُلِقْتُ كبيرَ النفس عزيزَها، بل كدتُ أُجاوزُ الحدَّ في إكْبار نفسي وإعزازِها.

فإذا اخترتك بعد أن رأيتُ وسمعتُ وعرفتُ وروَّيتُ فلأنَّك كنتِ فوق ما تحدِّثْني به نفسي، وتتمثَّلُهُ أمانيَّ.

الجمال عندي نوعان: جمال شائع وجمال نادر. وقد كنتِ من ذوات الجمال النادر جملةً وتفصيلًا، ولو كنتِ في زمان اليونان القدماء لجعلوك في مكان «أَفروديت»، وكأنِّي عملتُ حين اخترتكِ بوصية «نيتشه» الفيلسوف الألماني، وهي «تزوَّج أَجمل فتاة».

على أنَّ جمالك لم يكن الشيء الوحيد الذي راعيته في اختياري لك، وإنما هناك جمال نفسك من أخلاقٍ عالية، وآدابٍ رائعة، وثقافةٍ واسعة، وسكينة، ووقار، فكأنَّكِ خُلِقْتِ من المسكِ والذهب المصفَّى.

لقد كنتِ موضعَ إعجابي واحترامي، وموضعَ إعجاب كل من عرفك واحترامِهِ.

***

ولعلَّك لم ترضَيْ بي، يا أُمَّ سَرِيٍّ؛ لأنِّي كنتُ أَوَّلَ من طلبك، فقد تقدَّمني كثيرون، وكلهم من الطِّراز الجديد المثقَّف، ولكن لأني كنت أعْرَفَهم بقدرك، وأشدَّهم إعجابًا بك، وحبًّا لك، وكأنَّ ابنَ الفارض يخاطبك بلساني حين قال:

ما رأتْ مثلَكِ عيني حَسَنًا

وكمثلي بكِ صَبًّا لم تَرَيْ

نَسَبٌ أقربُ في شرعِ الهوى

بَيْنَنَا من نَسَبٍ من أَبَوَيْ

ولقد كانت حياتنا الزوجية على ما كان يعترضها من فترات فراق وقلق، رواية جميلة، بل أوبرا مستمرة، بل عيدًا سعيدًا، بَل مَثَلًا أعلى في السعادة. ولولا أَني أُجِلُّ نفسي عن السُّخْف لقلت: إن الناسَ حسدونا يا سلطانة، ودعَوْا بأن نَغَصَّ فقال الدهرُ: آمين.

(٢١) كَلِمات

١

كل ما ندَّعيه من حُبٍّ على اختلاف أَنواعه ودرجاته ليس صحيحًا. يموت أَعَز الناسِ على الناس، فلا يعدو ما يجدونه من الحزن لموتِهم ما يجدونه من الحزن لضياع أداةٍ من أدَوات تَرَفِهم، أو لخسارةٍ ضئيلةٍ تحِلُّ بتجارتهم؛ بل قد تجد من الناس من إذا خسرت تجارته، أو أَضاع منصبًا عاليًا كان يشغلُهُ، جُنَّ، أو انتحر، أو مات كمَدًا.

إذا كانت هذه قيمة الناس عند الناس، فيا موتُ زُرْ!

٢

كنت أَظن أَنِّي أُحِبُّ الحياة، فإذا بي أُحِبُّك أنْتِ لا الحياة، فلما غبتِ عَنِّي أصبحت الحياة في نظري شيئًا تافهًا لا قيمة له، وما هذهِ الحياة؟

نسير فيها من الطفولة إلى الشيخوخة، من الصحة إلى المرض، من الازدهار إلى الذُّبول، من النشاط إلى الكَلال، من الأَمَل إلى اليأس، من السرور إلى الكآبة، من الحياة إلى الموت.

أَوَّلُ يومٍ في الحياة هو أول خطوة إلى الموت. فإذا كنا نخاف من الموت فالأَولى أن نخافَ من الحياة؛ لأنها مَجْلَبة الموت، وإذا بكَينا لفِراق الأحبَّاء فالأَولى أن نبكي من اليوم الأوَّل لأنَّ هذا الفِراق واقع لا محالة.

٣

كنتِ سروري، وكنتِ عزائي.

كان سروري مزدوجًا: سروري بك، وسروري لك.

أمَّا سروري بك فلأَنَّك كنتِ لي غايةَ بُغيتي من هذه الدنيا.

وأمَّا سروري لك فكان حين أُوَفَّق فأُدخل شيئًا من السرور على نفسك.

كان عزائي بك عظيمًا.

إذا سعيت فأخفقت، إذا اقتنيت فخسرت، إذا نظرت إلى الدنيا فلم تعجبني، إذا توالت عليَّ المصائب عن يميني وعن شمالي، كنت ألجأ إليك، فأتعزَّى.

أَمَّا الآن فلا سرورَ ولا عزاء.

٤

خرجتُ من المقبرة، وإذا بجنازة وراءها جمهور كبير من المُشيِّعين، وقد أَخذت بعض النساء بيدَيِ امرأة قد تكون أُمًّا، أو أُختًا، أو زوجة، وهي تبكي بكاءً مُرًّا يُفَتِّت الأكباد، فخَنقتني العبرة، وانضممتُ إلى المشيِّعين وأنا أحسبُ نفسي ماشيًا في جنازتك.

لا أرى جنـازة يـا أُمَّ سريٍّ إلا حسـبتها جنازتـكِ، ولا أرى قـبرًا إلا حسـبته قـبركِ، كأنِّي ذلـك الشـاعر الـذي قـال:

فقلـتُ له: إن الأسى يبعثُ الأسى

فدَعْنـي فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

٥

ليـت أَنـا نسـتطيع أن نحتكـم في مـا نذكـر، وفي مـا ننـسى، فـلا نذكـر إلا مـا يسرُّنـا، ولا ننـسى إلا مـا يؤلمنـا، فتكـون لنـا ذاكـرة نوعيـةٌ تذكـر شـيئًا ولا تذكـر شـيئًا آخـر، ويكـون لنـا نسـيان نوعـيٌّ ننـسى نوعًـا مـن الحـوادث ولا ننـسى نوعًـا آخـر، كـما يُصـاب بعـض النـاس بالعمـى اللـوني، فـيرَوْنَ لونًـا ولا يـرون لونًـا آخـر، أمـا ونحـن لا نسـتطيع أن نحتكـم في مـا نذكـر وفي مـا ننـسى فحياتنـا آلام في آلام.

٦

إذا كانـت الأدوار التـي مـرَّ بهـا البـشر ثلاثـة: دور المعـدة، ودور القلـب، ودور العقـل. فيـا ليـت البـشر يرجعـون إلى دور القلـب، بـل إلى دور المعـدة! ذلـك خـير لهـم مـن أن يصلـوا إلى دور العقـل الجـاف القـاسي، بـل يـا ليـت البـشر، وقـد وصلـوا إلى دور العقـل، يُخلصـون مـن دور القلـب فهـو موضـع الإحسـاس، وأمـا أن تكـون لنـا قلـوب تُحِـس، وعقـول تهـزأ بهـذا الحِـسِّ فـما أشـقانا!

٧

تُختَم الصلاةُ على الميِّتِ في الكنيسة الأرثوذكسية بنشيدٍ يترنَّم به قسيس أو غيره بالتحزين باسم الميت يُودِّعُ به الناسَ والدنيا، فتنهمل الدموع، وترتفع الزفرات، ويُقبل الناسُ على النعش يمرُّون من أمامه يتزوَّدون من الميت النظرةَ الأخيرة، مما تنقلب به الصلاة إلى مناحة.

لا تجد مثل هذا إلا في الكنيسة الأرثوذكسية، بل يترنَم أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى بترانيم مختلفة، ولكنها أقرب إلى الصلاة منها إلى المناحة، وإذا فكَّرت وجدتَ أنَ الناس في مثل هذه المواقف أحوج إلى المناحة.

لا شك أن الذين وضعوا شعائر المذهب الأرثوذكسي واحتفالاته كانوا أَعرف من غيرهم بطبائع البشر، بل كانوا شعراءَ وموسيقين كبارًا، فإن ترانيم الكنيسة الأرثوذكسية لكل حفلة من أبلغ الترانيم وأرقاها، على حين تجد أن ترانيم بعض الكنائس الأُخرى بسيطة، وحجَّتهم أنهم يربأون بصلواتهم أن تكون حفلاتٍ موسيقية.

٨

لماذا نعيش؟

رأى الناسُ أن الحياةَ عبثٌ، فضلًا عما يُصاحبُها من الألم من المهد إلى اللحد، فحاولوا أن يجعلوا لها قيمة ليسلُّوا نفوسهم، ويُهوِّنوا ما يعانون من أَلم، فماذا قالوا؟

قالوا: إننـا نعيش لنعمر الدنيا.

مـا أسـخف هذا الرأي! لا عمرت الدنيـا إذا كنا نعيش فنتألم فنموت.

قالوا: إننـا نعيش لنتمتع بالحياة.

مـا أسـخفَ هـذا الـرأي! كيـف يطيـب لنـا العيـش وشـبح المـوت ماثـل أمـام العيـون. ثـم مـا هـذه المـسرات واللذائـذ التـي نتمتـع بهـا؟! وكـم هـم الذيـن يتمتعـون بهـا؟!

لمـاذا نعيش؟! لماذا نعيش؟!

٩

لا أزال أَذكـر أننـا اختلفنـا مـرةً في الزهـور، فكنـتِ أنـتِ تُحبينهـا، وحرصـتِ عـلى زراعتهـا في حديقتنـا؛ لأنهـا تمثِّـل بازدهارهـا الحيـاة، وكنـتُ أنـا أمقتهـا لأنهـا تمثـل بذبولهـا المـوت، فكنـتِ تعجبـين مـن غرابـة عقـلي وذوقـي، وتقولـين لم أرَ أحـدًا يمقـت الزهـور الجميلـة الطيبـة الرائحـة غـيرك.

مـا الـذي أوحـى إلينـا أن نتكلـم في هـذا الموضـوع؟ لا فـرق بيننـا إلا أنـك كنـت تُحبـين الحيـاة وأني كنـت أكـره المـوت.

١٠

مـا أصدقَ ما قالـه ابن الروميِّ في أُمِّهِ عليَّ فيكِ. فقد قال:

نَبَـا ناظري يا أُمِّ عن كلِّ منظرٍ

وسـمْعِي عن الأصواتِ بعدَكِ والنَّغَمْ

وصارمـتُ خُلَّاني وهم يصِلونَني

وقـد كنتُ وصَّالَ الخليلِ، وإن صَرَمْ

وآنسَـني فَقْدُ الجليسِ، وأوحَشتْ

مشـاهدُهُ نفسي، ولم أدرِ ما اجترمْ

نعـم، يـا سـلطانة، لقـد نبـا ناظـري عـن كل منظـر، ونبـا سَـمْعي عـن كل صـوت، ولـولا الحيـاء لصارمـتُ خُـلَّاني وأهـلي، وانزويـتُ في غرفتـي أُناجيـكِ، وأبكيـكِ.

١١

ليلة عيد الميلاد.

في مثـل هـذه الليلـة مـن كلِّ سـنة كنَّـا نقيـم شـجرة عيـد الميـلاد: نقـفُ حولهـا، ونـوزِّع الهدايـا، ونُغنـي أَغـاني العيـد، ونلبـس التيجـان مـن الـورق الملـوَّن الجميـل، ونعقـد حَلَقـات الرقـص، وكان كثـيرون مـن الأهـل والأصدقـاء يشـاركوننا في ليالينـا هـذه؛ ولعلَّنـا كنـا أول مـن مـارسَ إقامـة

شـجرة عيـد الميـلاد مـن الشرقيِّـين في هـذه البـلاد.

كنـا في بعـض السـنين نقـضي عطلـة العيـد متنقِّلـين إمـا في فلسـطين، وإمـا في لبنـان، وإمـا في مـصر، فـنروح ونجـيء والدنيـا باسـمة لنـا، وكأننـا أَمِنَّـا فجـاءاتِ الليـالي.

مـا كان أسـعدنا، وأجمـل حياتَنـا، لقـد علَّمْنـا النـاس كيـف يكـون الحـبُّ، وكيـف يكـون الوئـام، وكيـف تطيـب الحيـاة!

ولكن ما أصدقَ قولَ الشـاعر فينا:

وسـالَمَتْكَ الليالي، فاغتَرَرْتَ بها

وعنـدَ صفوِ اللَّيالي يحدثُ الكدَرُ

١٢

كان زواجُنـا روايـةً مـن أوَّلِـهِ إلى آخـره، كان حبُّنـا حديـثَ النـاس، لم يَرَوْنـا نـروح ونجـيء، في النهـار أو الليـل إلا قالـوا: يُحِبُّهـا وتُحِبُّـهُ، لم يَـرَوْنِي أَسـير في الطريـق وحـدي إلا عرفـوا أنِّي ذاهـب إليـكِ، أو آتٍ مـن عنـدك. ولم يَـرَوْكِ تسـيرين في الطريـق وحـدَك إلا تسـاءلوا: أيـن خليـل؟

وعهـدُ النـاس بالحـب أن يكـون في أوَّلِـهِ حـارًّا ثـم لا يلبـث أن يفـتُر، أن يكـون قبـل الـزواج قويًّـا ثـم لا يلبـث بعـده أن يضعـف، أن يكـون في عهـد الصبـا في أعـلى درجاتـه ثـم لا يلبـث إذا ذهـب الصبـا أن تدنـو درجاتـه

شـيئًا فشـيئًا إلى أن يـزول، أن يزهُـوَ والدهـر مقبـل، وأن يـذويَ إذا اكتنفتـه الهمـوم.

أمـا حُبُّنا فهو هو أَمسِ واليومَ وغدًا.

١٣

لقـد كنـتِ يـا سـلطانة جوهـرةً نفيسـة هيهـات أن يجـودَ الزمـانُ بمثلهـا: أَمَّـا في جمالـك فكأنـك باكـرك النعيـم فصاغـك بلباقـة، وأمـا في خِصالـك فكأنـك خُلقـتِ كـما شـاء العُـلي لا كـما تشـاء الوِراثـةُ أو البيئـة، فكنـتِ في جمالـك وخِصالـك غريبـة عـن النـاس أجمعـين.

إذا لم أكـن مغـترًّا بنفـسي قلـتُ: إني كنـتُ أُشْـبِهُكِ في بعـض ذاكِ، فقـد نشـأتُ في أسرةٍ مثـلِ أسرتـك، وفي بيئـةٍ مثـلِ بيئتـك، ولكننـي كنـت في أَخلاقـي ونزعـاتي غريبًـا عـن النـاس أجمعـين.

إذا لم أكـن مغـترًّا بنفـسي فقـد كنـت أشـبهَ النـاسِ بـك، لقـد كُنـت غريبًـا في زمـاني كـما كنـتِ غريبـةً في زمانـك، وإذا كان هنـاك مـن الفتيـات مـن لم تكـن تصلُـح إلا لي فأنـتِ، وإذا كان هنـاك مـن الفتيـان مـن لم يكـن يصلُـحُ إلا لـكِ فأنـا.

ولكـن لابـدَّ لي أن أُعلن هنا أنكِ كنتِ فوق قدري.

١٤

لقـد ملأْتِ يا أمَّ سريٍّ حياتي كلَّها.

كنـتُ أظـن إذا مـات الواحـد خـلا مكانُـه فـإذا أنـتِ مِـلءُ الوجـود: لا أروح ولا أجـيء، لا أُقيـم ولا أُسـافر إلا رأيتُـكِ، فكأنـك موجـودةٌ في كل مـكان.

كنـتُ أَظـن أن للحيـاة أولًا وآخـرًا، فـإذا أنـت مـلءُ الزَّمـان: إذا رجعـتُ في الزمـانِ إلى الـوراء، أو ذهبـت فيـه إلى الأمـام فأنـتِ معـي.

لا يحتويـكِ مـكان دون آخر، ولا زمان دون آخر.

أنتِ ملءُ المكان والزمان.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي